سيف بلا قرآن!

للشيخ
أبي المنذر الشنقيطي
حفظه الله

1435هـ | 2014م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

من وقت لآخر..يحدث في بلاد المسلمين أن يعتدي تلميذ بالضرب المبرح على أستاذه؛ لأنه لامه أو وبخه أو حتى لم يمنحه درجة عالية في الامتحان..!

يحدث هذا الأمر كثيرا، حتى أصبح ظاهرة مستهجنة لأنها ثمرة لانعدام التربية وعلامة على مستوى انحدار الأخلاق في المجتمع..

لكن أن يصل الأمر إلى حدوث هذه الظاهرة في التيارات الجهادية، فيعتدى على القائد والشيخ والرمز ويشهر به بل ويوصم بالانحراف، لمجرد أنه اغلظ في الزجر، أو شدد في التوجيه، أو خالف رأي أتباعه ومنتسبيه..

فهو ما يدعو إلى العجب..!

لا..

بل إلى الأسى!!

أوصلت المشيخة التي كان يتغنى بها البعض إلى مستوى من الهزال بحيث تذوب عند أول غضب، وتداس عند أول خلاف ؟

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي!

الثناء والذم عند بعض الناس –كما هو الحال عند اليهود– لا يتعلق بذات الشخص أو صفته، بل يتعلق بمدى موافقته أومخالفته..

فما دام موافقا فهو محمود على كل حال، وما دام مخالفا فهو مذموم على كل حال!

روى البخاري في تفسير سورة البقرة أن عبد الله بن سلام لما أسلم قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال: أي رجل عبد الله فيكم؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله،

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله".[1]

وعلى هذه الشاكلة فإن البعض من الناس قد يتحولون في غمضة عين من طلبة متواضعين، وأتباع مخلصين، إلى شيوخ للشيوخ مرشدين، أو خصوم لهم معاندين..!

وإن تعجب.. فإن لهم حاسة دقيقة، وميزانا لا يترك صغيرة ولا كبيرة.. وذاكرة لا تنسى الزلات، ومولّدا سحريا يحول الصغائر إلى موبقات..

إذا سها الشيخ أو تعثر، قالوا هلك وتغير!

وأخرجوا له ارشيفا مسودا بالسيئات، وجرّوا له ذيلا طويلا من الطامات!

ورموه بسهام أبي جعران..

ولربما بادر من هو أجهل من ناهق، وأجرأ من حازق إلى منحه شهادة وفاة على الفور..

ودعا إلى الصلاة عليه على الفور..

وتكفينه على الفور..

ودفنه على الفور..

كما هي السنة في تعجيل الجنائز..!

ثم صاح ناعيه في الناس: عظم الله أجركم في شيخنا..!

ولو علم هذا الناعي حقيقة نعيه لأدرك أنه إنما ينعي دينه وخلقه :

كم قد قتلتُ وكم قد متُّ عندكم ثم انتفضت وزال القبر والكفن!

قد كان شاهد دفني قبل قولهم جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا!!

كيف السلامة في زماننا من هؤلاء وقد ابتلي بهم الشعبي في زمانه فصاح قائلا:

(١) صحيح البخاري

(والله لو أصبت تسعا وتسعين وأخطات واحدة لأخذوا الواحدة وتركوا التسعة والتسعين**!!**)[1].

فمثلهم لا يدوم له ود، ولا يستمر له إخاء.. كما قال المتنبي:

وإن بليـــت بـــود مثـــل ودكـــم   فـــإنني بفـــراق مثلـــه قمـــن**!**

بعضهم يظنون أهل العلم سيتعلقون بثيابهم قائلين: بالله لا تتركونا**!**

وما علم المساكين أن أهل العلم يأنفون من صحبة أرباب هذه الطبائع.. فشر ما يطبع عليه المرء خلق دنيء ولسان بذيء.

ومن ساءت أخلاقه طاب فراقه..

هاهو شعبة يقول لبعضهم: (قوموا عني.. مجالسة اليهود والنصارى أحب إلي من مجالستكم..!)[2]

أما ابن عيينة فقد كشف المستور بعدما ضاق بهم ذرعا فقال: (إني لأرغب عن مجالستكم منذ أربعين سنة..!)[3]

وكان الفضيل ابن عياض إذا رآهم قادمين إليه يفصح – لا شعوريا- عن قمة الضجر فيضع يده في صدره ويحرك يديه ويقول: (أعوذ بالله منكم)..!![4]

ولو رأى أهل زماننا لزاد على ضرب صدره نتف شعره..!

أما الشافعي فقد بنى بينهم وبين العلماء جدارا من القطيعة فقال:

ومنزلـــة الســـفيه مـــن الفقيـــه   كمنزلـــة الفقيـــه مـــن الســـفيه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٠٨".

(٢) الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع (ص: ١٠١)

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

فهـــذا زاهـــذ في مثـــل هـــذا وهـــذا فيـــه أزهـــد منـــه فيـــه
إذا غلـــب الشـــقاء علـــى ســـفيه تقطـــع في مخالفـــة الفقيـــه

***

ومن تأمل في موقف علماء الجهاد اليوم من بعض الأخطاء والمخالفات الشرعية التي تقع في ساحات الجهاد، وانتقادهم لها رأى من هؤلاء القوم أصنافا وألوانا..

فكلما تكلم العلماء واستنكروا، ودعوا إلى إصلاح الخلل وتلافي الزلل، قام من يستوي قوله وبوله برجمهم، ووصفهم بالانحراف والانتكاس!

قـــذفك بالفحشـــاء مـــن م يكـــن يعـــرف بالفحشـــاء تضـــليل
بـــل ســـوأة غابـــت فأحضـــرتها جهـــلا وغرتـــك الأباطيـــل

روى البخاري في كتاب الشروط، قصة مسير النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية، ومما ورد فيها:

"وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" الحديث.[1]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في ذكر ما يستفاد من هذا الحديث نقلا عن ابن بطال وغيره:

(جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها، لا ينسب إليها، ويرد على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله؛ لأن خلأ القصواء لولا أنه خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة صحيحاً، ولم يعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك لعذرهم في ظنهم)[2]..

***

(١) صحيح البخاري

(٢) فتح البار ي لابن حجر(٥/ ٣٣٥).

ربما كان مبلغ علم البعض أن نصرة الجهاد لا تكون إلا بالتشجيع والتصفيق فحسب، كحال المشجعين للفرق الرياضية..

و أما ما سوى ذالك فهو التخذيل..!

لكن علماء الجهاد يدركون أن دورهم لا ينحصر في التشجيع والتحريض، وإنما يشمل أيضا الاحتساب والنقد من أجل الإصلاح والتقويم..

وهم يحتسبون نقدهم لما يقع من أخطاء في ساحة الجهاد كما يحتسبون تحريضهم على النفير إليها..

فالاحتساب على الدين والجهاد لا يكتمل إلا مع وجود هذين الشقين..

إن الإنكار على المجاهدين وانتقاد أخطائهم ليس تخذيلا عن الجهاد، بل هو عين النصرة التي أمرهم الله بها..

لقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما، أرأيت إن كان ظالما، كيف أنصره؟ قال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره"(١).

والعلماء بنقدهم أخطاء المجاهدين، إنما يقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم في براءته مما صنع خالد ببني جذيمة وقوله: "اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد" (٢)..

وفي إنكاره على أسامة ابن زيد عندما قتل من تلفظ بالشهادتين..

بل إن الوحي كان ينزل بالإنكار على بعض تصرفات المجاهدين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذالك مثلا:

١– قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٦٧] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(١)

---

(١)ر واه البخا ري

(٢)ر واه البخا ري

يقول ابن جرير:

(يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: {لولا كتاب من الله سبق} ، يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسولا الله صلى الله عليه وسلم ناصرًا دينَ الله لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم).(٢)

٢- قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٣)

يقول ابن جرير:

(يعني: قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأحد: {أنى هذا} من أي وجه هذا؟ ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا، ونحن مسلمون، وهم مشركون، وفينا نبي الله صلى الله عليه وسلم، يأتيه الوحي من السماء، وعدونا أهل كفر بالله وشرك؟ قل يا محمد للمؤمنين بك من أصحابك: {هو من عند أنفسكم} يقول: قل لهم: أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم، بخلافكم أمري، وترككم طاعتي، لا من عند غيركم، ولا من قبل أحد سواكم..).(٤)

وفي هذا كله دليل على مشروعية الإنكار على المجاهدين والتصدي لأخطائهم..

***

لكن بعض أنصار الجهاد اليوم يريدون من العلماء التركيز على جانب المديح والثناء، مع السكوت عن الانحرافات والأخطاء..!

(١) [الأنفال: ٦٧-٦٨]

(٢) تفسير الطبري ج ٤ ص ٦٤.

(٣) [آل عمران: ١٦٥]

(٤) تفسير الطبري ص ٣٧١

وهذا هو عين ما يفعله الشيوخ المناصرون للحكام، حين يثنون عليهم ويأمرون الناس بطاعتهم، ولا يتطرقون – ولو بالإشارة– إلى ما يقترفون من المكفرات..دعك من سائر المنكرات!!

والحق أن انتقاد بعض الجماعات المجاهدة من طرف علماء الجهاد دليل على تجردهم في طلب الحق وتحريهم لموافقة الصواب.. بغض النظر عن المخالف لهم والموافق من الشيع والأحزاب..

ولم يزل أهل العلم الصادقين هكذا.. يقولون ما يدينون الله به، لا يخشون في الله لومة لائم.. ولا يرهبون صولة الامراء، ولا جعجة السفهاء..ولا تستدرجهم رشاوى الثناء، ولا تسكتهم قنابل الهجاء..

و حال لسانهم كما قال أبو هريرة: "مالي أراكم عنها معرضين؟..والله لارمين بها بين اظهركم! "(١)..

ولو تغاضى العلماء عن زلات المجاهدين، وسعوا إلى سترها أو تبريرها، تعصبا لهم أو تحيزا، لكان ذالك مؤذنا بوجود جيل من المتواطئين على المخالفات، والمتعارفين على المنكرات، كما قال ابن الأعرابي:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم ... بعضا ليستر مُعوِر عن مُعوِرِ

وما شاع المنكر في قوم بلا نكير إلا استقر فيهم وثبت، بل ربما أصبح لهم عادة ودينا... مما يعني في النهاية انحراف مسيرة الجهاد..!

وظيفة علماء الجهاد إذن هي: مناصرة ومحاصرة ..

مناصرة للمجاهدين في عملهم الجهادي الذي لا تشوبه شائبة..

ومحاصرة لكل ما قد يقع في الجهاد من منكرات تقضي عليه وتفسد مسعاه..

إنها: عسل، وعلقم...حلاوة، ومرارة..

(١) صحيح البخار ي

تلك هي وظيفة العلماء..

فليتقبلها من ينادونهم ويستصرخونهم للمشاركة في الجهاد..

وأما من لا يريدون من هذه الوظيفة إلا شقها العذب، فهم كما قال الشاعر:

كبكـــر تحـــب لذيـــذ النكـــاح وتهـــرب مـــن صـــولة النـــاكح!

***

الالتزام بالمشورة ينبغي أن يكون مبدءا ثابتا للمجاهدين، لأن الله تعالى وصف المؤمنين به وأثنى عليهم فقال: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم – وهو المؤيد بالوحي– يقف بين أصحابه ويقول: اشيروا علي أيها الناس..أشيروا علي!!

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه: "ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله"[١].

قال شيخ الإسلام في السياسة الشرعية: "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩] ".[٢]

وقال الشافعي: "إنما يؤمر الحاكم بالمشورة، لكون المشير ينبهه على ما يغفل عنه، ويدله على ما لا يستحضره من الدليل"[٣].

إن اللبيـــب إذا تفـــرق أمـــره فتـــق الأمـــور منـــاظرا ومشـــاورا
وأخـــوا الجهالـــة يســـتبد برأيـــه فـــتراه يعتســـف الأمـــور مخـــاطرا

(١) رواه الترمذي، في كتاب الجهاد، باب ما جاء في المشورة.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٢٦.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٣٤٢

وقيل في الحكمة: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برأيه.

والعلماء الربانيون هم الهداة إذا اختلط الليل بالتراب، وحار الناس في معرفة الصواب.

وقد أمر الله تعالى بسؤالهم وحض على طاعتهم ووصل حبالهم..

فقال تعالى: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونِ} [النحل: ٤٣]،

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩] ، وأولوا الأمر هم: الأمراء والعلماء..

قال ابن كثير في تفسيره: "الظاهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس"(٢).

فحري بالمجاهدين الصادقين ان يستشيروهم ويسألوهم عن كل ما يلم بهم، خاصة في أمور الجهاد، ومسائل الدماء، وشؤون الأمة ومصالحها العامة..

قال البخاري: (وكان الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة)(٣).

وقال أيضاً: (وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً وشباناً، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل)(٤).

وحين تأتي النصيحة من العلماء، فالرزية أن لا يقبل نصحهم ولا يسمع قولهم..

وإن ليموا على نصحهم فتلك رزية على رزية..!

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٦

(٢) السياسة الشرعية ١٤٢.

(٣) صحيح البخاري

(٤) صحيح البخاري

النصح أرخص ما باع الرجال فلا... تردد على ناصح نصحا ولا تلم.

***

لقد حاول أعداء الدين أن تسير سفينة الجهاد بلا ربان من العلماء – لعلمهم أن ذالك مفض لا محالة إلى غرقها – فحاصروا واعتقلوا كل مؤيد للجهاد من أهل العلم بتهمة التحريض على الإرهاب..

فغدى المناصرون للجهاد من أهل العلم كالقابضين على الجمر..

إن سكتوا خسروا دينهم ... وإن نطقوا خسروا دنياهم..!

و صاروا بين قتيل وأسير ومطارد ومحجور عليه ممنوع من الكلام..

حتى لم يبق صابرا على هذا الطريق، متحملا لما فيه من الألم والشدة والتضييق، إلا النزر القليل اللذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة..

فوجود مثل هؤلاء العلماء الذين يسددون مسيرة الجهاد ويصوبونها نعمة من الله عز وجل على المجاهدين حري بهم أن يغتبطوا بها..لا أن يحسبوها نقمة ووبالا!

وهم كنز ثمين لا يدرك قيمته إلا من رزقه الله بصرا ثاقبا..

وكم نعمة كانت على الحر نقمة ... وكم مغنم يعتده الحر مغرما

يروي السبكي في طبقات الشافعية: (أن الملك الصالح إسماعيل، من بني أيوب، ولى العز بن عبد السلام خَطابة الجامع الأموي، وبعد فترة قام هذا الملك بالتنازل للنصارى عن بعض الحصون ، كقلعة الشقيف وصفد..

فاعترض العز بن عبد السلام وقطع الدعاء للملك في الخطبة فعزله عن الخطابة، ثم ذهب الملك لمقابلة قادة النصارى، فأخذ معه العز بن عبد السلام ، وسجنه في خيمة ، وبينما كان الملك جالساً مع النصارى، إذا بالعز بن عبد السلام يقرأ القرآن، ويصل صوته إليهم، فقال الملك: أتدرون من هذا الذي تسمعون ؟ قالوا: لا. قال: هذا من أكبر قساوستنا — ولم يقل: علمائنا — أتعلمون لماذا سجنته ؟ قالوا: لا. قال: لأنه اعترض على تحالفنا معكم وتسليمنا لكم بعض الحصون.

فقال النصارى: والله لو كان هذا قسيسا عندنا بهذه الشجاعة والإخلاص لغسلنا رجليه بالماء وشربناه، فخجل الملك وأمر بإطلاق سراحه[1]:

***

يقول بعضهم:

نحن لسنا ضد مبدأ المناصحة والتقويم، لكنا نعترض على الشدة على المجاهدين، والمبالغة في الإنكار عليهم.

والجواب على ذالك: أن العلماء هم من يقدر الظرف ومدى الحاجة إلى الشدة أو اللطف. فأحيانا يكفي التلطف والتحذير الناعم، وأحيانا لا بد من الإنكار بشدة والإغلاظ على المصر المداوم..

فالتارك للمندوب ليس كالتارك للواجب، والغافل والساهي ليس بمنزلة العامد والمصر..

ومن كان مصرا فبقدر إصراره لا بد من القسوة عليه ..

وليس ذالك بغضا له، أو إعانة عليه.. وإنما رحمة به وحرصا على ثنيه عن جريرته، كما قال أبو تمام:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقس أحيانًا على مَنْ يرحم

وقال المعري:

فرب شق برأس جر منفعة وقس على شق رأس السهم والقلم

ومعاتبة الإخوان خير من فقدهم...

وظاهر العتاب خير من باطن الحقد.

فالغلظة والشدةُ فيِ النصيحة والتعليم ليست مذمومة على كل حال..

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٢٤.

وفي ذالك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة لكن ذالك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذالك التخشين)[1]

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أحيانا يغلظ على بعض أصحابه في الإنكار، مثل قوله لأبي ذر: "أعيّرته بأمه؟..إنك امرؤ فيك جاهلية!"[2].

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "أيما رجل سببته سبة أو لعنته لعنة فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين اجعلها عليهم صلاة يوم القيامة "[3].

لكن ما يصدر عن أهل العلم من شدة وقسوة غالبا ما يكون ردة فعل على إساءات الطلاب!

كما قال هشيم: (كان إسماعيل ابن أبي خالد من أحسن الناس خلقا فلم يزالوا به حتى ساء خلقه)[4].

و مهما يكن سبب تلك الشدة والقسوة فإن طلب العلم والسعي إلى تحصيله يستوجب الصبر عليها.

وفي ذالك يقول النووي مبينا آداب طالب العلم: (ومن آدابه أن يحتمل جفوة الشيخ وسوء خلقه، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته، واعتقاد كماله، ويتأوّل لأقواله وأفعاله، التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة، فما يعجز عن ذلك إلاّ قليل التوفيق أو عديمه، وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ، وأظهر أن الذنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له في الدنيا والآخرة، وإنقاء لقلب شيخه له)[5].

وهذا كما قال الشاعر:

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨)

(٢) صحيح البخاري

(٣) سنن أبي داود.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (ص: ١٠١).

(٥) (التبيان ص: ٣٩)

إذا مرضـــــنا أتينــــاكم نعـــودكم   وتــــذنبون فنـــأتيكم ونعتــــذر!

ومن تمام المروءة: ان تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك.

وقد كتب الخطيب البغدادي في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) فصلا بعنوان: (الرّفق بالمحدّث واحتماله عند الغضب).

وهذا التحمل والصبر على أذى الشيخ دليل على جدية الطالب في الطلب..

ولهذا قال محمد بن هارون:

ولطمـــة عـــالم في الخـــد عنـــدي   ألـــذ لـــديَّ مـــن شـــرب الرحيـــق

و كان بعض أهل العلم يختبرون جد طلبتهم في العلم بالشدة عليهم والقسوة..

فلربما جاء الطالب من البلاد النائية فلا يأذن له الشيخ بالدخول بل يتركه ينام على عتبة الدار الليل كله..

و كان للأعمش كلب يعترض كل من يريد الدخول عليه من طلبة العلم..!

وكان –أي الأعمش – يتظاهر بأنه لا يشعر بقرب من يليه من الطلبة فيبصق عليه وكأنه يريد الأرض..وإذا تحرك أو تكلم ألغى الدرس!

والقصص في هذا الباب كثيرة لا تحصى..

لكن الشدة من الكبار ليست كالشدة من الصغار..

فشدة الشيخ على طلابه تأديب وزجر مشروع..

وشدة الطلاب مع شيخهم وقاحة وسوء أدب ممنوع..

فعلى طالب العلم أن يعظم شيخه ويوقره حتى يكون من اللطف واللين كأنه عسل في سأب..

إن المعلـــم والطبيـــب كلاهمـــا لا ينصـــحان إذا لم يكرمـــا

جاء فيه حديث أبي موسى: "أن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط."(1).

و عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه"(2).

***

وكما أنه لابد من الصبر على أذى الشيخ وقسوته فلا بد أيضا من ضبط النفس والصبر على كل ما يصدر عنه من أمور قد تكون غريبة..

فبعض الناس مثل النعامة عينه أكبر من رأسه..!

فيرى بعينه من تصرفات شيخه ما يعجز عقله عن فهمه..فيفتن ولما ينبأ بتأويله**!!**

ولهذا كان من شروط الخضر على موسى عندما أراد التعلم منه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار على ما أشكل عليه فهمه:

قال تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}

وطبعا لم يستطع موسى عليه السلام أن يستوعب كل ما رآه من فعل الخضر أو الصبر عليه وكان هذا هو سبب الفراق بينهما.

وليست هذه القصة دليلا على متابعة الشيخ في الحق والباطل على حد سواء، بل هي دليل على التأني وعدم المسارعة إلى الإنكار على أهل العلم قبل الفحص المتأني والتحقق من موضع الزلل.

---

(١) ر واه أبو دا ود والبخار ي في الأدب المفرد.

(٢)ر واه الإمام احمد في مسنده.

فـــاقنع بجهلـــك إن حضـــرت معلمـــاً   واقنـــع بـــدائك إن حضـــرت طبيبـــاً

***

ولو افترضنا أن العلماء الربانيين أخطؤوا في بعض مواقفهم، لما كان ذالك مسقطا لأقدارهم أو حاطا من منازلهم..

وكيف تسقط أقدارهم عند أول هفوة وهم أصحاب المنازل العالية والمقامات السامية..؟

بل في مثلهم يقال: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم"(1)..

ويقال: "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم"(2)..

فلا يمدح المرء بأول صوابه ولا يذم لأول خطئه..

ولهذا قال الشاعر:

ولـيس فـرار اليـوم عـارا علـى الفـتى   إذا علمـــت منـــه الشـــجاعة بالأمـــس

وقال غيره:

وإذا الحبيـــب أتـــى بـــذنب واحـــد   جـــاءت محاســـنه بألـــف شـــفيع

وقال آخر:

فـإن يكـن الفعـل الـذي سـاء واحـدا   فأفعالـــه اللائـــي ســـررن كثـــير

ومن هذا الباب مقولة ابن القيم المشهورة:

" ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفي عنه ما لا يعفي عن غيره؛ فإن

(1) جامع الترمذي.

(2) صحيح البخاري

المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فإنه لا يحمل أدنى خبث "[1].

وقال أيضا في مدارج السالكين: (فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ووهبت له سيئاته لأجل حسناته) [2].

ويقول الإمام الذهبي: (إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه، وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه)[3].

وقال سعيد بن المسيب: (من كان فضله أكثر من نقصه وُهِب نقصه لفضله)[4].

وأهل المقامات العالية تدرأ عنهم مكانتهم العقوبة والتعزير كما قال العز بن عبد السلام: (لو رفعت صغائر الأولياء إلى الأئمة والحكام لم يجز تعزيرهم عليها، بل يقيل عثرتهم، ويستر زلتهم، فهم أولى من أقيلت عثرته، وسترت زلته)[5].

بل إن الأمر قد يصل عند ابن القيم إلى إسقاط الحدود!!

يذكر ابن القيم في "إعلام الموقعين" قصة إسقاط سعد بن أبي وقاص حد الشرب عن أبي محجن وقوله: "والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى للمسلمين ما أبلاهم!"[6]..

فيقول ابن القيم معلقا:

(والظاهر أن سعدا رضي الله عنه اتبع في ذلك سنة الله تعالى فإنه لما رأى من تأثير أبي محجن في الدين وجهاده وبذله نفسه لله ما رأى درأ عنه الحد لأن ما أتى به من الحسنات غمرت هذه السيئة الواحدة وجعلتها كقطرة نجاسة وقعت في بحر......وقد بريء النبي صلى

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٦)

(٢) مدارج السالكينج ص٣٧٣ ٣٨٣بتصرف.

(٣) سير أعلام النبالاء(٥/٢٧١)

(٤) ر واه الخطيب في الكفاية (ص: ٧٩)

(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام(١/١٥٠)

(٦) مصنف ابن أبي شيبة.

الله عليه وسلم مما صنع خالد ببني جذيمة وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" ولم يؤاخذه به لحسن بلائه ونصره للإسلام..)[1].

و الصحيح أن ذالك لا يصل إلى إسقاط الحد لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود"[2].

أخيرا نقول:

لا بد لهذا الدين من كتاب يهدي وسيف ينصر..

الكتاب يرشد السيف ويهديه..

والسيف يذب عن الكتاب ويحميه..

ولو أخذ المسلمون الكتاب واهملوا السيف فلن تقوم للدين قائمة..

ولو أخذوا السيف وأهملوا الكتاب فلن يكون الجهاد المزعوم إلا سكينا في يد سكران يعيث بها فسادا في كل مكان!

فلا بد للجهاد المشروع من اجتماع المجاهدين الحاملين للسيف مع العلماء الحاملين للكتاب..

فمن دون المجاهدين ينعدم الجهاد بالكلية..

ومن دون العلماء يفقد الصحة والمشروعية..

مسك الختام:

عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول..ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون "[1].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ج ٤ ص ١٥.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم وله طرق كثيرة بمجموعها يكون حديثا حسنا.

قال شيخ الإسلام: (المستكبر عن الانقياد للحق يبتلى بالانقياد للباطل)[٢].

والله اعلم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

ابو المنذر الشنقيطي

.٢٠١٤/٠٨/٣٠



منبر التوحيد والجهاد

* * *

http: //www.tawhed.ws
http: //www.almaqdese.net
http: //www.abu-qatada.com
http: //www.mtj.tw

---

(١) حديث حسن ،ر واه أحمد ، والبخار ي في الأدب المفرد والبيهقي في الشعب.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦ ٥).